السادات وحرب أكتوبر

تعرض السادات للنقد الشديد مع دأبه ونصبه وعنائه وتعبه وما ذاقه وما قاساه من خلال العكوف على البحث عن مخرج وطنى خلال قبوع إسرائيل داخل سيناء وخوضه لحرب أكتوبر بجيش مصر الباسل.

.. ورغم ذلك شنت عليه حملة شعواء، وكأن عبد الناصر قد انتقلت روحه إلى خالقها بعد أن ترك مصر واحة خضراء فحولها السادات إلى صحراء جرداء.

.. يقول الدكتور "جلال أمين" فى كتابه "مصر والمصريون فى عهد مبارك":

"منذ ذلك الوقت ١٩٦٧م تدهور مركز الدولة فى مصر، فانتشر العبث بالقانون وزاد الفساد حتى أصبح هو الوسيلة الأساسية للإثراء، والوصول إلى قمة الهرم الاجتماعى، كما أصبح الفساد وسيلة ضرورية للحصول على ما يتطلبه مجرد البقاء على قيد الحياة، فى أدنى درجات هذا الهرم.

ولم تنقذ حرب ١٩٧٣م الدولة المصرية من هذا التدهور؛ إذ لم يجلب الانتصار العسكرى انتصارا سياسيا، بل فرض على مصر، على إثر هذه الحرب، ليس مجرد الصلح مع إسرائيل، بل فتح أبواب الاقتصاد على

مصاريعها للسلع ورؤوس الأموال الأجنبية، وأصبحت الدولة المصرية تتلقى الأوامر من الخارج فيما يتعلق بموقفها من إسرائيل، ومواقفها من أشقائها العرب، ونوع سياساتها الاقتصادية، على السواء.

وعندما تصل الدولة المصرية إلى هذا الحد من الضعف، لابد أن يصيب هذا الضعف الاقتصاد والثقافة والإعلام، فضلا عن المواقف السياسية، فلا عجب أن تنظر الدول العربية الأخرى حولها باحثة عن مصر فلا تجدها ؟!".

.. ومن قبل ذلك قال :

"إن السادات قام بتنفيذ كل ما طلب منه فى السياسة الاقتصادية فدشن سياسة الانفتاح الاقتصادى فى ١٩٧٤م، وقام بتطبيقها على النحو الذى يحقق مصلحة المصدرين والمستوردين، دون مراعاة لمقتضيات حماية الصناعة المصرية من التدهور وتشجيع القطاع الزراعى على النمو، فسمح للواردات فى الحالين بمنافسة المنتجات المحلية، ولم يحافظ على مستوى الاستثمار العام اللازم لتنمية هذين القطاعين الأساسيين وفى ظل انتعاش مالى سببه تدفق تحويلات المهاجرين المصريين من دول النفط وإعادة فتح قناة السويس، واستعادة بترول سيناء وارتفاع سعره، وعودة المعونات الأجنبية، وبعض الانتعاش فى السياحة بدت مصر وكأنها فى حالة رخاء عام، إذ ارتفعت الدخول وزاد الاستهلاك بشدة، وغمر مصر فيضان من السلع الاستهلاكية المستوردة، اعتبره السادات وأنصاره "إصلاحا اقتصاديا وانتعاشا" بعد عقدين من الحرمان.

دعم من هذا الظن ارتفاع معدل نمو الناتج القومى ارتفاعا مبهرا، إذ بلغ فى الفترة (١٩٧٥م ـ ١٩٨٥م) أكثر من ٨٪ سنويا، ومن ثم زاد متوسط الدخل بأكثر من ٥٪ سنويا، وهو مالم تعرفه مصر طوال المائة عام السابقة على الأقل. ولكن الحقيقة أن هذا الرخاء كان بمثابة بناء قصر جميل على الرمال : فقد انخفض بشدة معدل النمو فى قطاعى الصناعة التحويلية والزراعة بسبب انخفاض الاستثمار العام فيهما وإهمال تجديد وصيانة القطاع العام، وحمايته من المنافسة، وكان النمو المرتفع فى مصادر غير مضمونة ولا يمكن الارتكان إلى استمرارها. فتحويلات المهاجرين تتوقف على أسعار البترول وعلى سياسات الدول العربية المستقبلة للعمالة المصرية، وأسعار البترول تتقلب مع تقلب ظروف الطلب الدولى، وكذلك إيرادات قناة السويس والسياحة، والمعونات محكومة بالطبع بالاعتبارات السياسية، وقد تأكدت هشاشة هذه المصادر كلها ابتداء من منتصف الثمانينيات .

.. أضف إلى ذلك استسلام السادات لإغراء القروض الخارجية، فى وقت كانت البنوك الغربية تبحث لنفسها عن مجالات لاستثمار فوائض إيرادات البترول التى تدفقت عليها، فراحت تغرى دول العالم الثالث باقتراضها، وبأسعار فائدة باهظة، سواء كانت هذه الدول فى حاجة إليها أم لم تكن. ولم تكن مصر قطعا فى حاجة إلى هذه القروض، فقد كان اقتراضها فى فترة رخاء غير معهودة، كما سبق أن أشرت، وكان جزء كبير من هذه القروض قروضا عسكرية، بأسعار فائدة بالغة

الارتفاع، فى وقت كان السادات يعلن فيه أن حرب أكتوبر ١٩٧٣م هى آخر الحروب ."

.. هل هذا الضعف الذى أصاب اقتصاد مصر وضرب الوطن فى مكمنه.. "كان سببه أنور السادات؟".. أم أن السبب فى ذلك يرجع إلى تدهور مركز الدولة فى مصر وانتشار العبث بالقانون وزيادة الفساد الذى عم وطن.. كان السبب فى ذلك كما ذكر الدكتور أنفا؟! .

.. وقمين بنا أن نرد على ما وجه إلى السادات من نقد عنيف إلى سياسة الإنفتاح التى اتبعها فى مصر محولا الدولة بها من الاشتراكية "Socialism" إلى الرأسمالية "Capitalism" وما تبعها من ظهور طبقة رأسمالية طفيلية اتسعت وتضخمت حتى بلغت الحلقوم منها. وأن هذا أدى إلى المزيد من النهب والسلب من ممارسة هذه الطبقة لسياستها الخاصة بها .

.. ونرد على هذا،فنقول:

.. هل كان السادات يقصد بهذه السياسة شرا لمصر ؟

.. وهل قال السادات للطبقة التى استغلت الانفتاح. "هلموا اسرقوا وانهبوا" ؟.

.. يقول "شارل زوجيب" أستاذ العلاقات الدولية:

إذ كان يجب على مصر بعد انتصار ١٩٧٣م أن تختار سياسة الانفتاح، لأن مصر الخالدة المنهكة بفعل أربعة حروب، والمجمدة بفعل البيروقراطية الناصرية Nasserism Bureaucracy

مشحونة بالأمل أمام الانفتاح، فمصر تحتاج إلى السلام والتنمية بشكل عاجل.

.. يذكر صاحب كتاب "الاغتيال الثانى للسادات" لم يكن اتجاه السادات نحو الانفتاح خاطئا إن لم يكن ضروريا كما أوضح "زوجيب"، ولكن جرى تنفيذه بشيء من العشوائية المفرطة، وعدم مراقبة ووضع ضوابط معينة فاختلط الحابل بالنابل، ونال الثراء الفاحش فئة معينة والذى جرى وصفه.. وكما يذكر كاتب هذه السطور، على لسان أستاذنا الدكتور " رفعت المحجوب " رئيس مجلس الشعب المصرى والذى درس لنا علم المالية العامة فى كلية الحقوق جامعة القاهرة. أصبحت مصر تعيش فى زمن القطط السمان

.. كما أن ما ارتآه الدكتور"أمين"، ذكره كاتب إسرائيلى هو "جوزيف فينكليستون "Joseph Finkeliston" فى كتابه "السادات وهم التحدى" ترجمة " عادل عبد الصبور " إذ قال:

" إن المجتمع المصرى قد انشطر إلى هاتيك القطط السمان ناهيك عن المتطفلين الذين يسيرون فى ركبهم فى ناحية، وبقية السكان فى ناحية أخرى. ، فالسادات قد فشل فى تحويل اقتصاد الدولة بصورة كلية وترك أجزاء منها تضرب فى الفقر،إلا أن الحقيقة التى لايجانبها أدنى شك أن السادات حينما تولى القيادة كانت الحياة الاقتصادية مليئة على الأقل ببعض أسباب الفشل"

.. وأردف الكاتب الإسرائيلى يقول:

"إنه ليس من قبيل العدل أن نعزو الفشل كلية إلى سياسة الانفتاح الاقتصادى.. كذلك ليس من قبيل العدل أن نستبعد عناصر أخرى أدت إلى إساءة تفسير المشكلة كالانفجار السكانى.. فالسادات عندما أصبح رئيسا كان عليه أن يتعامل مع تركة محبطة، فقد ترك له "ناصر" اقتصادا مهموما يعانى اتساع دائرة الفقر، واستشراء الفساد البيروقراطى، وعدم كفاية الخدمات العامة، والنقص فى الغذاء، وفوق ذلك ـ كما ذكر ـ الزيادة الهائلة فى عدد السكان، والتى بلغ معدلها مليون نسمة سنويا، ومن ثم قد اعتقد أنه بمنح القطاع الخاص دورا أكبر فى عجلة الاقتصاد، فإن ذلك سيؤدى إلى إنقاذ الاقتصاد من مرضه.

.. يذكر الدكتور "حازم الببلاوى " فى كتابه " دور الدولة فى الاقتصاد :

إن البشرية قد عانت معظم تاريخها فى ظل أوضاع التخلف والبدائية، ولعل الطفرة الأولى الأساسية بالتطور الاقتصادى قد تحققت قبل عشرة آلاف عام عندما اكتشف الإنسان الزراعة مع الثروة الزراعية فى منطقة الشرق الأوسط فى وادى مابين النهرين أو وادى النيل على خلاف بين المؤرخين.

.. وأشار إلى كتابين أحدهما لمؤلف أمريكى والآخر فرنسى الأول هو " فرنسيس فوكومايا F. Fukuyama " فى كتابه نهاية التاريخ، والآخر فى كتابه "الثقة أو مجتمع الثقة La socieeté ale confiance" وهى رسالة دكتوراه ناقشها المؤلف بعد ما يقرب من نصف قرن من

تسجيلها، وتدور الفكرة المحورية لهذا الكتاب وذاك حول تصور بسيط فى جوهره ولكنه قد يكون بالغ الخطورة فى آثاره وهذا التصور أو تلك الفكرة هى أن ينبغى البحث فى التقدم إلى الأمام من حيث إن تقدمها ليس فقط راجعا إلى اعتبارات اقتصادية من تراكم رؤوس الأموال أو توافر الموارد الطبيعية أو تحقيق الثورة العلمية التكنولوجية أو النظم والسياسات الاقتصادية المناسبة.. "وإنما يرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى توافر أو عدم توافر معوقات ثقافية فى علاقات المجتمع وهى معوقات الثقة والاطمئنان، وهكذا فإن ثقافة الثقة هى أساس تقدم الأمم".

.. فهل تقاعس السادات عن بث الثقة إلى المجتمع المصرى لينهض من كبوته الاقتصادية؟

.. والذى لا مشاحة فيه أن التخطيط من قبل الدولة يعد أداة قوية لاستمرار الثورة.. وفى هذا السياق أشار السادات إلى تجارب بعض الدول مثل (أستراليا، والسويد، وبريطانيا).

.. وفى تقدير السادات أن الصين برغم كونها فقيرة فإنها ترسم الطريق لأى دولة ذات عدد سكان كبير لإطعام سكانها.. وأنه لم ترد تقارير عن أناس ماتوا جوعا فى الصين أو يعيشون فى ظروف طاحنة يمكن أن تؤدى إلى اندلاع ثورة.

.. كان السادات شخصا طموحا اكتسب شرعية بطولية، كما اكتسب فخر واحترام الشعب المصرى، ومن ثم اعتقد أنه بإمكانه التصرف كأب يرى المعارضة ضرورية للنظام الديمقراطى لكن يجب أن تتم السيطرة عليها، كما يجب أن يتم تقويض الانتقادات الموجهة للنظام.

.. علق السادات على معرفته أن العجز فى الميزانية بلغ أربعة ملايين جنيه استرلينى، وحقيقتها إنها كانت (أربعة بلايين)، وكما صحح الرقم الدكتور " جلال أمين " فى كتابه سالف الذكر، وهو ما لم تكن مصر قادرة على تغطيته، فقال :

(إن الاقتصاد المصرى يشبه ذلك الرجل الذى يبدو ذا صحة، ولكن لا يوجد دم يجرى فى شرايينه، ولذا فهو يحتاج إلى نقل دم يمنع موته).

.. ومن الجدير بالذكر أن السادات ـ محتذيا بتجربة ألمانيا الغربية التى انطلقت من دمار الحرب العالمية الثانية لتصبح واحدة من أغنى الدول ـ وجه نداء إلى المصريين للقيام بمبادرات شخصية، وألا يعتمدوا على الدولة دائما، مشيرا حفيظتهم بأن مصر كانت واحدة من أعظم الإمبراطوريات الزراعية، والتى لم تكن تنتج غذاء لشعبها فحسب، وإنما لشعوب أخرى من العالم، وهاهى مضطرة إلى استيراد كميات كبيرة من الغذاء من الخارج وبالعملة الصعبة.. مشيرا إلى أن المصريين قادرون على "تحسين أحوالهم".

.. وكان السادات يرد بازدراء على تصريحات القذافى الذى قال:

"إن مصر جائعة فى ظل السادات"

.. جاء فى كتاب الدكتور " إبراهيم دسوقى أباظة " الخطايا العشر":

"إن البيان الرسمى قد ذكر أن السادات قتل برصاص جماعة إسلامية متطرفة"

.. ولكن التحليل السياسى يقول :

" إن الرئيس السادات قتل نفسه.. وأن حادثة المنصة لا تعدو أن تكون نوعا من الانتحار السياسى المحتوم، وبين هذين البعدين : البعد الرسمى والبعد السياسى يدور الخلاف حول التفسير، ويظل الدرس غامضاً ينتظر التحليل والتعليل".

.. والتفسير الرسمى يقف بالحدث عند أسبابه المباشرة ويكتفى منه بالوصف الجنائى الوارد فى تقارير الأمن وملفات القضاء.

.. والتفسير السياسى يرفض الوقوف بالحدث عند حدود من حرَّض.. ومن دبرَّ.. ومن أطلق النار.. فالرصاص لا ينطلق هكذا بلا جذور ولا مقدمات.. والذين أطلقوا الرصاص لم يهبطوا من السماء.. بل جاءوا من جماعة خرجت من صلب المجتمع وتشكلت بتفاعلاته ومؤثراته.. وفى مركز هذا المجتمع توجد السلطة.. والنظام الذى يستخدم السلطة.

.. وعندما يصبح رئيس النظام محور السلطة.. ومحط المسئولية فى كل فعل أو تصرف يصدر عن السلطة فإن اختفاءه بهذا الأسلوب الدموى العنيف لا يجوز أن يقف بنا عند الأسباب والدوافع المباشرة.. والاكتفاء بحصر الاتهام فى أفراد أو جماعات.. بل يجب مد البصر إلى الأسباب الجذرية والدوافع البعيدة التى هيأت المناخ العام لظهور هؤلاء الأفراد أو هذه الجماعات.. ومهدت لتقبل فكرة العنف والرصاص كبديل للتعبير عن الرفض المطلق لسياسة الرئيس السادات والنظام الذى يمثله.

.. وهنا معقد الأمل فى إدراك الإجابة الصحيحة.

.. فنحن لا نطرح السؤال : من قتل الرئيس السادات إلا سعيا للبحث عن الأسباب الجذرية التى مهدت للحدث ورتبت نتائجه.. وهذا شأن الأحداث الكبرى التى تخرج عن المألوف فى تاريخ الأمم.

.. فليس مألوفا أن يغتال رئيس دولة وسط عسكره وحرسه وحكومته وعلى مشهد من العالم أجمع.. حتى نكتفى من الحدث بسطحه الظاهر ثم نسارع إلى إغلاق ملفاته لنمضى بالسفينة فى هدوء على النهج نفسه.. بالأساليب نفسها!!.

.. ولكن المألوف أن يستوقف حدث بهذه الأهمية والخطر كل باحث عن الحقيقة.. وأن يستحثه على البحث السليم وفى الإطار الصحيح.

.. والإطار الصحيح.. ليس فقط شخص الرئيس السادات ولا نظام الرئيس السادات.. بل تجربة الثورة بأكملها.. فالرئيس السادات لم يأت من فراغ ونظامه لم يولد من عدم.. بل كان سليلا لتجربة طويلة امتدت إلى عهدين.. ووريثا لتركة عظيمة فرضت وجودها على عصر بأكمله.

.. والإجابة الصحيحة لابد وأن تنطلق من هذا الإطار لتتبع الجذور والكليات التى أسدت منطق التجربة وتحكمت فى قادتها سلوكا وأسلوبا.. وأفرزت على تعاقب المراحل والعهود سلبيات خطيرة تراكمت على كافة مستويات حياتنا.. حتى أصبحت من طول التراكم والإهمال مصدر تأثير ضاغط على أداة الحكم.. وموضع توجيه لسياستها الداخلية والدولية.

.. ورغم دقة الإجابة وارتباطها الوثيق بتجربة الثورة.. فقد تعرضت حادثة المنصة لأكبر عملية سطو على الحقيقة.. وكان أبطالها هذه المرة.. هم أبطال كل مرة زيفت فيها الحقائق.. أو أخفيت عن الناس ليظلوا عالقين بمواقعهم.. بعيدين عن كل مساءلة أو حساب.. هؤلاء الأبطال هم جماعات المرتبطين بتجربة الثورة المستفيدين منها على اختلاف العهود.

.. فالساداتيون لا يرون حادثة المنصة إلا بمنظار الصدف البحتة.. فهى فى روعهم حادثة فردية أو معزولة تماما كحادثة اغتيال الرئيس كنيدى أو محاولة اغتيال الرئيس ريجان !!.

.. وبهذا التبسط الصريح المريح فسر الساداتيون الحادثة وسارعوا إلى قيدها فى خانة القضاء والقدر.. ليشيعوها من بعد إلى مقابر التاريخ!!.

.. "والناصريون" يرفضون بشدة هذا التفسير ويردون على أشقائهم فى التجربة بتفسير مضاد.

.. فحادثة المنصة ليست فردية.. ولا معزولة.. ولكنها حصاد عهد الرئيس السادات.. وثمن الخروج عن الخط الثورى الذى انتهجه الرئيس جمال عبد الناصر.. وما انتفاضة يناير عام ١٩٧٧م سوى إعلان عن بداية خريف الغضب ضد الرئيس السادات واختياراته السياسية!!.

.. وبهذا التفسير المبتور عن جذروه يقفز الناصريون فوق المراحل متجاهلين النظام الأم الذى جاء بنظام الرئيس السادات والمدرسة الأم التى تخرج فيها الرئيس السادات ليطالبوا بضرورة العودة إلى النهج

الثورى الذى تخطاه الرئيس السادات.. وأساليب "السلف الصالح" التى رفضها الرئيس السادات !!.

.. هذا التفسير المبتور.. يكشف بعض الحقيقة.. ولكنه لا يقدم كل الحقيقة.. بل يخفى جوهرها عن عمد وإصرار.. فخريف الغضب على حد تعبيرهم سبقه ومهد له ربيع كاذب رعته وروته من منبر الأهرام أحلام "الزعامة الملهمة" و "القيادة الحكيمة" و "القوة الضاربة".. وكانت نهاية هذا الربيع المورق بالأوهام والأراجيف يوم صفعة الهزيمة.. ومن يومها.. يوم الخامس من يونيو.. بدأت الجماهير تجتر غضبها.. من يومها بدأ خريف الغضب !!.

.. لقد أسقط الناصريون من حسابهم الهزيمة ومضاعفاتها وهم يفسرون حادثة المنصة.. ولم يتذكروا قط البداية الحقيقة لخريفهم الغاضب.. ولا المظاهر الشعبية لهذا الغضب إلا فى انتفاضة يناير ١٩٧٧م.. وتناسوا أول مظاهر الغضب الشعبى الكاسح ضد كل ما يمثله جمال عبد الناصر فى انتفاضات فبراير ١٩٦٨م بالقاهرة.. ونوفمبر ١٩٦٨م بالإسكندرية .

.. وما ذكره الدكتور " أباظة " من قوله إن الرصاص لا ينطلق هكذا بلا جذور ولا مقدمات.. وإن الذين أطلقوا الرصاص لم يهبطوا من السماء بل جاءوا من جماعة خرجت من صلب المجتمع هو قول لا يجافى الحقيقة، وإن كان صحيحا فإنه مردود عليه بأن الذى قتل الزعيم " ابراهام لينكولن" (Abraham Lincoln) (م. ١٢ فبراير

١٨٠٩م – ١٥ أبريل ١٨٦٥م) الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية فى الفترة من ١٨٦١م إلى ١٨٦٥م. الذى يعد من أهم رؤسائها على الإطلاق، إذ قامت فى عهده الحرب الأهلية الأمريكية بعد انفصال إحدى عشرة ولاية وإعلانها تكوين دولة مستقلة سمّيت الولايات الكونفدرالية الأمريكية، فتمكن لينكولن من الانتصار وإعادة الولايات المنفصلة إلى الحكم المركزى بقوة السلاح، كما كان "لينكولن" صاحب قرار إلغاء الرق فى أمريكا عام ١٨٦٥م. حضر لينكولن مع زوجته مسرحية فى "ماريلاند" يمثّل فيها مجموعة من المتعاطفين مع قضية الانفصال، فقام أحدهم، جون ويلكس بوث، بإخراج مسدسه وإطلاق النار فى رأس لينكولن فأرداه قتيلا.

.. هذا الذى قتله لم يهبط من السماء.!

.. وكذلك الذى قتل الرئيس جون كينيدى (يسمى أيضًا جون فيتزجيرالد كينيدى أو جون إف. كينيدى) رئيس الولايات المتحدة الخامس والثلاثون. وتوفى مقتولا فى ٢٢ نوفمبر، ١٩٦٣م فى دلاس، تكساس وقد اُتّهم "لى هارفى أوسولد" باغتياله.

.. لم يهبط هو الآخر من السماء؟!!

.. وكان كينيدى كما كان السادات رئيسا ديمقراطيا يتميز بشخصية إنسانية جمعت بين التدين والديمقراطية، والعقل الذى لا يخرج به عن محجة الصواب، وذرف عليه العالم الدموع وبكى عليه الجموع كما كان من العالم إثر مقتل الرئيس السادات.

.. والذى نراه ويراه الكثيرون وبحق أن السادات قد ورث عن سلفه الرئيس الراحل "جمال عبد الناصر" تركة محملة بالأثقال والهموم وبالمحن والإحن

.. وكان ذلك بسبب إقدام جمال عبد الناصر على مناصرة ثورات الشعوب التى كانت تتحرق شوقا إلى الاستقلال فمد عبد الناصر يد العون إليها بالقول أو بالفعل وغالبا بالثانية فى سبيل الحصول على استقلالها. مما كبد خزانة الدولة مالا عددًا

.. وارتآه البعض أنه كان مغامرا فى خوضه حرب اليمن وكذلك حرب الكونغو، وبيافرا حتى إن ثمة مُزحة ترددت على أفواه الشعب المصرى حال عرض فيلم " ثورة على السفينة بونتى " قالت المزُحة على لسان شعب مصر :

إن الجمهورية العربية المتحدة تؤيد ثورة السفينة بونتى ؟!

.. لقد اقتحم السادات ساحة الوغى بجيش مصر الوطنى الذى كان خالى الوفاض من الأسلحة الحديثة والمتطورة والتى كانت بالقطع فى يد إسرائيل.

.. وعلى مدى شهور طويلة سجل الأستاذ "أنيس منصور" فى كتاب " أوراق السادات" أن: السادات كان يئن من تقاعس الاتحاد السوفيتى عن مساعدة مصر بإمدادها بالسلاح المطلوب حتى تكون على أهبة الاستعداد لتحرير أرضها، واسترداد كرامتها.

.. وقد عانى جمال عبد الناصر من ذلك المسلك من الاتحاد السوفيتى تجاه مصر وتلكؤها فى هذا الخصوص، ومن ثم قبل مبادرة روجرز

الأمريكية لحل الصراع العربى الإسرائيلى وتعرض للسخط جراء ذلك، وإيقاع الأذى عليه بل سبه وقذفه من بعض القادة الفلسطنيين.

.. إذن فإن قدح الزعماء الوطنيين عادة أصيلة درج عليها بعض المصريين ولا نقول جلهم بخصوص قادتهم وزعمائهم ورثوها عن أجدادهم المصريين القدماء.

.. فلا ينسى التاريخ ما حدث مع "إخناتون" الذى كان أول من دعا إلى التوحيد فى مصر القديمة وكانت دعوته سببا فى انقلاب الكهنة عليه مع أنه نزع قناع الخوف والرهبة عن شعبه،وأظهر أشعّة الحقيقة بتعبّده للإله الواحد خالق السموات والأرض، ودعا شعبه إلى عبادة الإله الواحد المسمّى "آتون"،وإلى تركهم لعبادة إلههم "آمون" والآلهة التابعة له،بانصرافه للتأمّل فى الكون والخلق والطبيعة،وتركه لكلّ ما يتعلّق بالعظمة الحسّية والعالم الحسّى المادى، وما إلى ذلك من بذخ وملذات عبر دعوته إلى التوحيد الإلهى، ودمر من أتى بعده إلى الحكم آثاره مشوها إياها كما رأيناها ورآها غيرنا بادية للعيان على معبد الكرنك بالأقصر.

.. قلنا فى كتابنا خواطر قاض تحت عنوان تاريخنا. هل يكتب من جديد؟ إن زعماء مصر بدءا من أحمد عرابى قائد الثورة العرابية، ومصطفى كامل زعيم الوطنية، وسعد زغلول قائد ثورة ١٩١٩م، ومصطفى النحاس، ومحمد نجيب المصرى الوطنى الأصيل وأول رئيس لجمهورية مصر، وجمال عبد الناصر مؤمم شركة القناة وبانى السد العالى وقائد

الثورة الصناعية فى مصر، وانتهاء بمحمد أنور السادات قائد حرب أكتوبر المجيدة وبطل الحرب وبطل السلام.

.. فقالوا عنهم ما قاله " مالك فى الخمر "، فالأول كان يشطح فى حفل زار وهو يرتدى ملابسه الداخلية عشية معركة التل الكبير التى انتصر فيها الإنجليز على الجيش العرابى بالخديعة والخيانة، أما الثانى فهو عميل لتركيا والداعى إلى ضم مصر إلى آل عثمان، والثالث : انشغل فى عراكه مع الزعماء المصريين وركب قمة الموجة الثورية أى أنه كان انتهازيا، أما الرابع : فهو الزعيم الذى قبل أن يأتى إلى الحكم على ظهور الدبابات الإنجليزية عام ١٩٤٢م وإنه رئيس الوزراء الذى ذهب إلى الملك فى قصر عابدين ليقول له:

لقد أتيت إليك يامولاى أصالة عن نفسى ونيابة عن مجلس الوزراء لكى أقبل يدك الكريمة، أما الخامس فهو الذى أراد أن يعيد عصر الملكية لمصر كما ذكر أحد اللواءات الكبار لصحيفة مصرية، أما السادس فقد صبغ مصر بالشيوعية أو حاول فلم يفلح وحكمها بالحديد والنار وكان أشبه بكاليجولا الإمبراطور الرومانى الديكتاتورى الشرس ورموه بجنون العظمة وأنه جعل من مصر دولة كبيرة وجعل المصريين صغارا حتى إن كاتبا وطنيا هو الدكتور "محمود جامع" قد ذكر فى كتابه "عرفت السادات" ففى الصفحة الرابعة والثلاثين يقول:

أذكر أن عبد المنعم عبد الرؤوف، روى لى أنه جمعته بعبد الناصر غرفة واحدة على انفراد يوم ٢٤ يوليو سنة ١٩٥٢م بعد قيام الثورة

مباشرة وذلك فى مجلس قيادة الثورة، وأنه وجد عبد الناصر، وهو نائم ببدلته على كنبة من شدة الإرهاق.. وجده يهذى ويقول "أنا الملك وسأحكم مصر من قصر عابدين.. وأتخلص من جميع الزملاء.. وأنفرد بالحكم ".. وفكر عبد المنعم أن يخنق عبد الناصر ويتخلص منه.. ولكنه خاف الله.. وقال لى مازحا.. ليتنى خنقته.. وخلصت البلد من شروره؟!.

.. وأن عبد الناصر كان يريد أشخاصا مطيعين مريحين لا يسببون له المتاعب ,

.. أما أنور السادات فقد باع مصر لليهود.. وبدون وعود اللهم إلا اتفاقية كامب دايفيد التى هى وصمة الوصمات فى تاريخ أنور السادات! وأنه قد خان وطنه وداس على القضية الفلسطينية بقدمه؟!

.. نسى هؤلاء وأولئك أو الكل أنهم لم يقرءوا خطاب الداهية بسمارك فى مجلس نواب بلاده والذى قال فيه:

إن فرنسا تخيرنا بين أمرين لا ثالث لهم إما الحرب وإما الذل

كانت ألمانيا تتكون من ٤٠٠ إمارة متفرقة تقريبا، لكن أتى نابليون واختصرهم إلى ٣٨ ولاية. قرر بسمارك استخدام الدبلوماسية والعسكرية البروسية لتحقيق الوحدة, واستثنى النمسا من الاتحاد لرغبته فى أن تكون بروسيا هى أقوى الأعضاء وأكثرهم نفوذا فى الأمة المتحدة الجديدة. واجه بسمارك أزمة دبلوماسية حين مات فردرك السابع ملك الدنمارك فى نوفمبر عام ١٨٦٣م.

والذى كان لا يخشى من خوض حرب ضد فرنسا, فقد كان يؤمن أن الحرب معها ستؤدى إلى توحيد الإمارات الألمانية خلف قيادة ملك بروسيا.

.. متجها إلى استخدام مبدأ "حارب عدوك بسلاحه هو لا بسلاحك أنت".

.. ومات بسمارك فى ٣٠ يوليو سنة ١٨٩٨م عن عمر ناهز الثالثة والثمانين عاما، حيث دفن فى ضريحه المسمى ضريح بسمارك. وقد نقش على شاهد قبره الرخامى "الخادم الألمانى المخلص".

.. وهذا ما فعلته ألمانيا مع بسمارك .

.. أما ما فعله العرب مع السادات فقد كانوا يودون أن ينقشوا على رمسه

((هذا قبر أنور السادات الخائن المصرى الوطنى ؟!!))

.. ولم يكن السادات بعد أن امتدت إليه يد المنون بالمصرى الخؤون بل كان زعيما مصريا وقائدا ألمعيا قاد بلاده إلى النصر المبين.

.. قال عنه جمال عبد الناصر:

" إن شخصية أنور السادات لجديرة بالإعجاب.. خليقة بالإطراء.. فعبقريته العسكرية الممتازة.. وشجاعته.. ورباطة جأشه.. وإخلاصه وتفانيه فى خدمة المثل العليا.. إلى جانب قوة إرادته.. وتنزهه عن الغرض.. ورقة عواطفه.. وميله الغريزى للعدالة والإنصاف.. كل هذه الصفات جعلته أهلا للقيام بدور هام فى التمهيد لثورة ٢٣ يوليو والسير بها قدما فى سبيل النجاح"

.. انظروا إلى هذا الأسوانى الأصيل "عبد الباسط سعد ربيع" المحامى بمحكمة النقض وهو يقول لنا عن السادات :

" إن أنور السادات أعظم من حكم مصر فى تاريخها الحديث على الإطلاق وإنه كان رجلا عبقريا، وإنه لم يسعفه القدر بأن يسعد مصر، وأن يكمل مسيرته الوطنية فى سبيل خير مصر وإن هذا الرجل سبق عصره"

.. كان السادات إشعاع نور تراه فيبُهرك فإذا حاولت إدراجه حيَّرك

.. وكانت حياته فيما نرى لمح من النور ولفح من النار!

.. كان يبتغى الوسائل ويتغيا الأسباب فطرق جميع الأبواب الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية وكان هدفه قريبا بعيدا قربه لا يغنى عن بعده.. إذ كان يسعى للسلام القائم على العدل.. بيد أنه فشل فى مسعاه ولم ينجح فى مبتغاه، ومن ثم قرع أجراس الحرب مع إسرائيل.. بغية تحرير أرضه وصيانة عرضه الذى هو عرض الوطن من ربقة الاحتلال الصهيونى البغيض الذى تسلل إليها بليل ولجأ إلى الخديعة وأصاب الوطن بالوجيعة .

.. وكان هدفه بعيدا لا تراه الأبصار وإن تعلقت به البصائر انفض من حوله شريحة كبيرة من أبناء وطنه فهاجموه وتظاهروا ضده ورموه بأبشع التهم وأطلقوا عليه النكات تلو النكات التى كان هو بنفسه يتندر بها ويعيدها على أسماع زائريه والبسمة لا تفارق وجهه انفضت هذه الشريحة من حوله وتمادت فى غيها وإذ طلب منهم الصبر فما صبروا التمس تصديقهم له فما صدقوا مع أنه كان صادقا أمينا فيما يقول:

"بيد أنها طبائع الشعوب هى على عجلة دائما من أمرها وعلى رغبة عجلى للوصول إلى قصدها ".

.. وما استطاع السادات أن يأخذهم بنواصيهم إلى سنة الصبر على البلاء حتى يزول عنهم الابتلاء.

.. فألهبوا ظهره بسياط النقد اللاذع وتحدثوا عنه بالأسلوب الفاجع، ولكنه سار على درب الفكر هو الذى يمتطى دائما محجة الصواب، وآثر التريث حتى تطيب الثمرة وتسقط من فوق غصنها .

.. فكفى ما حدث فى حرب يونيه ١٩٦٧م من انهيار الدولة ودثورها.

.. كانت المعركة الشجاعة الهائلة التى خاضها جيش مصر أشبه بمعركة دير الجماجم التى يتحدث عنها التاريخ من خلال كثرة الجماجم التى خلفتها هذه المعركة وهى منطقة تقع بين البصرة والكوفة فى العراق، إذ كان الحجاج بن يوسف الثقفى واليا فى العراق ورغم تبعيته لأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى فى ذلك الوقت،لكنه يتصرف فى العراق كحاكم مستقل تمام الاستقلال.

.. كان أحد القادة والشخصيات الفذة فى العراق على زمن الحجاج هو عبد الرحمن بن الأشعث الكندى،وقد وجهه الحجاج وكلفه بعدة مهام منه محاربة شبيب الشيبانى البكرى الخارجى، وولاه كذلك إمارة بلاد مايعرف بـ (سجستان) وهى شمال شرق العراق اليوم، وكان ابن الأشعث من القادة البارزين والزاهدين المتدينين.

.. وبسبب خلاف بينه وبين الحجاج خرج عليه وأعلن عصيانه سنة ٨٢هـ،والتف إليه أهل العراق الراغبين فىالتخلص من استبداد

الحجاج،إلا أن الحجاج وبعد سلسلة من المعارك الضارية هزم ابن الأشعث وقتله سنة ٨٣هـ وقتل مع من قتل من أهل العراق البارزين الشاعر عمران بن عصام العنزى والذى كان من أشد المخلصين لبنى أمية إلا أنه كان يكره الحجاج.

.. كان العدو الإسرائيلى كما يقول الشاعر:

قد أطـال هجـودا فى مضاجـع لهـوه
علـى تـرف والدهـر يقظـان ذو ألب
لقـد غـره أن الخطـــوب روابـــض
ولـم يـدر أن الليـث يربض للوثب

.. هذا الجيش الذى كانت إسرائيل تردد عنه أنه لا يقهر.. فقهره جيش مصر وأذله ومرغ جباه جنوده فى رمال سيناء، وتنفس المصريون الصعداء بعد عبور جيشهم الأبى لبر سيناء الشرقى الذى أسقط أحلامهم وضيع آمالهم وخيب رجاءهم.

.. فها هو السادات يعبر بجيشه أقوى وأمنع خط مائى دفاعى عرفه العالم وقبل خط ماجينو الذى كانوا يرونه كذلك.

.. كانت الأيام قبيل حرب أكتوبر تمضى ثقالا على حكمه، والناس قلقين وجلين يتساءلون :

هل يحقق السادات وعده ؟

وينجز حلمهم وحلمه ؟

.. كانت مصر آنذاك تعج بالشيوعيين والكارهين لشخص السادات والمستهزئين بقدرته على القيادة فقد خولطوا فى عقولهم وانتقلوا من الصياح والهتاف ضده لمحاولة الخروج عليه والثورة ضده، انغمسوا فى جهالاتهم واستمرءوا غيهم، وساروا فى ضلالاتهم حتى أفاقوا على صوت البشير وهو يزف إليه من النبأ العظيم.. فقد عبر جيش مصر المانع المائى المنيع، ورفع علم مصر على أرض سيناء.

.. ذات مساء بعد أن هل الليل طاردا من السماء شمس النهار فى شهر إبريل عام ١٩٤٤م، ولم تكن الحرب العالمية الثانية بعد قد وضعت أوزارها، وكانت معركة تونس، وجيوش الحلفاء متأهبة لإتمام المرحلة الأخيرة فى هجومهم التونسى، وردت إشارة إلى القيادة البحرية البريطانية فى «سوسة» من السير «أندروا كننجهام» القائد العام للقوات البحرية للبحر الأبيض المتوسط.

.. كانت فحوى هذه الإشارة أمرا "بأن تخرج ثلاثة زوارق طربيد " للقيام، بدورية فى النهار، حذاء ساحل شبه جزيرة رأس بون، وأن تفتح مسالك البحار فى تلك المنطقة.

.. وكان هذا هو الانتحار نفسه؟

.. إذ إن من المتفق عليه فى العلوم العسكرية أن هجوم الجيوش يجب أن يبدأ عندما يتنفس الفجر. وقبيل طلوع الشمس من خدرها

.. وهكذا بدأت حرب أكتوبر فى الساعة الثانية وأربع دقائق ظهرا، والغزالة تتوسط كبد السماء بما يغاير ما استقر عليه الأمر فى فقه هاتيك العلوم العسكرية، وكان هذا الميعاد بمثابة المغامرة ولا نقول المقامرة.

.. كان هذا بعد إعداد دقيق وحقيق بأن يمثل المباغتة التامة لإسرائيل.. "ولكن مع البغتة توفيق الإله"

.. كانت هذه أول حرب بين مصر وإسرائيل تبدأ فيها مصر بالهجوم الذى شل حركة إسرائيل، وأصاب فكر قادتها بالشلل فلم يكن فى الحسبان أن مصر تبدأ بهجوم على بلادهم ومن ثم لعبت هذه المباغتة دورا هاما فى إحراز مصر للنصر عليها ناهيك عن التعتيم الشديد الذى كان لدهاء السادات دورا أساسيا فيه.

.. كانت الصورة التقليدية التى ارتسمت فى أذهان العالم الخارجى عن العرب هو ما عبر أحد أساتذة علم الاجتماع فى جامعة كاليفورنيا إذ قال:

.. "يتميز العرب بالتخلف وعدم الأمانة والإحساس بالنقص والتصرف بأساليب بدائية تكاد تصل إلى حد البربرية وهم بطبيعتهم قدريون، كسالى، عديمو الطموح، متقلبو المزاج، مغرمون بالمؤامرات، ولا يعرفون من الحضارة سوى الصحراء والجمال والقادة الفاسدين والغوغاء الذين يصعب التنبؤ بالخطوة التالية لهم، وهم ضحايا التعصب. ويتصورون أن كل حروبهم حروب مقدسة".

.. وفجأة ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤﴾

.. وعبر جنود مصر قناة السويس، واقتحمت خط بارليف، والخطوط التالية له ومحتها من على الأرض محوا، وأضحى يوم كيبور "عيد الغفران" يوما شؤما فى حياة إسرائيل وعارا ووبالا عليها.

.. ونجم عن ذلك انقلاب كامل شمل العالم من شرقه إلى غربه ومن شماله إلى جنوبه، واختلت جميع الموازين، وانطمست جميع المفاهيم، ووقف العالم برمته مبهورا من هذا النصر الساحق الماحق الذى من الله به على جيش مصر.

.. يقول الدكتور "محمود نجيب أبو الليل" فى دراسة له:

.. "فى الأيام الخمسة الأولى من شهر أكتوبر كان كل شىء هادئا فى العالم.. فعلى الصعيد الدولى أعلن مستشار النمسا "كرايسكى" قراره المثير بإلغاء مركز تجميع اليهود السوفييت المهاجرين إلى إسرائيل وتثور إسرائيل وتضغط أمريكا لإرغام كرايسكى على سحب قراره والرئيس السادات يرسل إسماعيل فهمى وزير الخارجية إلى فيينا لشكر كرايسكى ومناشدته الاحتفاظ بموقفه..

.. و "فيلى برانت" مستشار ألمانيا الغربية يعلن فى شيكاغو أن أسلوب حل أزمة الشرق الأوسط هو التفاوض المباشر بين مصر وإسرائيل، ووزارة خارجيته تعود فتنفى ما نسب إليه وتعلن أن ألمانيا مازالت تعتبر قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ مناسبا لحل الأزمة..

.. والرئيس الأمريكى نيكسون يقرر بدء برنامج إجبارى لتوزيع وقود تدفئة المنازل بنظام الحصص، وذلك فى محاولة لتخفيف حدة آثار نقص الوقود خلال الشتاء..

.. والدولتان الكبيرتان تتقاربان وتتفقان.. ولا تباليان بما يعانيه العرب من ضيق ومرارة وتمزق، وتعلنان فى نوع من اللامبالاة بنا وبأمانينا عن ارتياحهما إلى الاسترخاء.. وهكذا بردت المواجهة بين الشرق والغرب.. وإسرائيل على الرغم من أنها ثارت لقرار كرايسكى،

وأخذت تبذل المحاولات المستميتة لإرغامه على سحب قراره، فإنها راحت تقيم الاحتفالات بالعام العبرى الجديد، وتستعد ليوم التكفير " يوم كيبور ".

.. والعلماء والمهندسون السوفييت يتدفقون على إسرائيل حتى بلغ عددهم ثمانمائة عالم خلال ثلاثة أشهر.. وساستها يعتقدون أن فرص السلام مازالت بعيدة.

.. وفى الوقت نفسه كانوا يؤمنون بأن فرص الحرب قد أضحت مستحيلة.

.. وهاك صورة ننقلها للقراء كما سجلها المراسل الحربى والمذيع المصرى الأستاذ "حمدى كنيسى" الذى قدم فى أثناء الحرب برنامج "يوميات مراسل حربى" مسجلا ذلك فى كتابه القيم "الساعة ٢,٠٥ بدأ.. الطوفان" لما أصاب قادة إسرائيل بعد أن خيم عليهم الهم، واعتورهم الغم، وكانوا حيارى لا يدرون ماذا يفعلون فقد تلقى أحد الجنود الإسرائيليين رسالة تقول بصوت متلعثم مرتبك :

.. " إن قوات الكوماندوز المصريين توغلت فى العمق، وتقوم بمهاجمة أهداف منطقتنا هذه!!"

.. وكان الجنرال " شموئيل جونين " قائد القوات الإسرائيلية فى جبهة سيناء، مجتمعا مع ضباط القيادة فى غرفة العمليات، لمناقشة عملية الصد والهجوم على القوات المصرية التى تواصل عبورها إلى سيناء، وتحاصر وتحتل عددا من النقاط الحصينة من خط بارليف.

.. أغمى على الدندى الإسرائيلى بعد أن سمع هذه الإشارة سقط مغشيا عليه .

.. وساد القلق وعم الارتباك غرفة عمليات القيادة. وسارع جونين وضباطه إلى الإمساك بأسلحتهم الشخصية فى أيديهم.. ولم يتخلوا عنها طوال الاجتماعات.

.. وفى منطقة أخرى كان أحد القادة الإسرائيليين (الجنرال كالمان ماجن) يصرخ فى جهاز اللاسلكى : " إن الكوماندوز المصريين يدخلون إلى سيناء من كل مكان.. وبكل وسيلة، إنهم يأتون من الجو.. ومن البحر.. وعلى الأقدام.. إن هذه القوات تقاتل بشراسة وهى مسلحة بأحدث الأسلحة.

.. وفى الساعة ١١,٣٠ من صباح الأحد ٧ أكتوبر ١٩٧٣م.. كان الجنرال موشيه ديان وزير الدفاع الإسرائيلى فى الهليوكبتر متجها إلى مقر قيادة جبهة سيناء عندما تلقت غرفة عمليات القيادة إشارة أخرى عن ظهور وحدات من قوات الكوماندوز (الصاعقة) المصريين فاتصل به الجنرال جونين فى الجو وقال له :

.. "لاتهبط بالطائرة.. على الأقل لا تهبط بها فى هذه المنطقة.. فالكوماندوز المصريون منتشرون هنا الآن !!"

.. وأصدر ديان أوامره السريعة لقائد الطائرة بتغيير الاتجاه والبحث عن مكان آخر يكون الهبوط فيه مأمونا!! وعندما آب من رحلته هذه كشف فيلم "وثائق إسرائيل" عن شدة الصدمة التى أصابت قادة الجيش الإسرائيلى فى اليوم التالى من اندلاع حرب ١٩٧٣م إذ سجل هذا الفيلم

وأزاح الستار عن تسجيل صوتى لجانب من المناقشات التى دارت داخل غرفة قيادة الجيش الإسرائيلى فى يوم ٧ أكتوبر عام ١٩٧٣م ويظهر وزير الدفاع الإسرائيلى وقتها "موشيه ديان" فى هذا التسجيل الصوتى وهو يتحدث بحزن وأسى بعد أن عاد لتوه من جولة بمروحيته العسكرية ليشهد حال جنوده على الجبهتين المصرية والسورية، وكشف الفيلم الذى نشرته صحيفة "يديعوت أحرونوت" مقتطفات منه اقترح فيها ديان انسحاب الجنود الإسرائيليين من مواقعهم للنجاة بأنفسهم ووقف الخسائر الإسرائيلية عند هذا الحد، واقترح إقامة خط دفاعى فى العمق الإسرائيلى معربا عن خوفه من أن يقوم الجيش المصرى بتدمير إسرائيل تماما وهدم ما يعرف بالهيكل الثالث وقال "دايان" لرئيس أركان الجيش ديفيد إليعازر: أعتقد أنه عندما يحل الظلام ينبغى أن أصدر أمرا للجنود بأن يستخدموا أسلحتهم الشخصية فقط، واللى يموت يموت، والجرحى اللى هيفضلوا يروحوا الأسر (أى يسلمون أنفسهم للجيش المصرى) {المصرى اليوم ٢٠١٣/٩/١٠}

.. أما "مورد خاى" يجلس على برج المراقبة فى التحصين المطل على جسر الفردان، عندما سمع فجأة، هديرا يصم الآذان ويزداد قوة وعنفا. لقد مر عن يساره سرب كبير من الطائرات المصرية النفاثة منطلقا داخل سيناء على ارتفاع يكاد يصل إلى ارتفاع الكثبان الرملية.

.. لم ير "موردخاى شيئا على سطح القناة.. ولكن فجأة.. وفى لحظات خاطفة، امتلأت المياه أمامه بعشرات القوارب التى تحمل الجنود المصريين المسلحين، وهى تجدف عابرة القناة من الغرب إلى الشرق.

.. قال مردخاى لنفسه "ماهذا؟" إنه منظر لا يصدق.. المصريون يعبرون القناة.

.. ولم يكد "مردخاى" ينهى تساؤله (لنفسه) حتى تلقى برج المراقبة الذى يجلس عليه، قذيفة من غرب القناة. ولحسن حظه لم يسقط به البرج، ولكنه وجد نفسه معلقا بما تبقى له من قوة بالإفريز الحديدى الذى كان قد ركز عليه المنظار المكبر.

.. وشاهد مردخاى مذعورا عشرات الجنود المصريين يقفزون على الحواجز، ويركضون على الرمال المنبسطة أمامه، ثم يقتربون من أسوار الحصن ويدسون تحت لفائف الأسلاك الشائكة أنابيب سوداء مستطيلة قذفت سحبا من الدخان، ووهجا من النيران، وأعمدة من الرمال. ولم يدرك ـ لسبب ما ـ لماذا كانت المشاهد التى تدور أمامه صامتة تماما.

.. لقد كان يخيم صمت مخيف. ولكن يبدو أنه سادت من حوله ضوضاء هائلة. رجال يركضون ويلوحون بأذرعتهم. ورخات رصاص تنطلق من المواقع. كل ذلك يحدث لكنه مازال لايسمع شيئا. ولم يعرف مردخاى ماذا جرى له إلا بعد أن تمكن من الوصول إلى الحصن حيث أدرك أنه قد أصيب بالصمم نتيجة إصابة القذيفة للبرج، كما أنه اكتشف أن أجزاء من لحم ساقه قد تمزقت .

.. فقد عبر المصريون بكل وسائل القتال على خط المواجهة والذى يبلغ طوله ١١٠كيلو متر مجهزة بمرابض الدبابات بلغت ثلاثمائة دبابة وكان عدد الحصون ٢٢ حصن منيع تمتد من باطن الأرض حتى أعلى الساتر الترابى محصنة تحصينا منيعا بكتل جراناتية وقضبان سكك حديدية.

.. كما ثمة خط تحصينات ثانٍ على مسافة من ٥ إلى ٨ كيلو مترات تضم ١١ موقعا حصينا.

.. يقول المشير "محمد عبد الغنى الجمسى" هذا القائد الفذ:

"إن العلماء والقادة العسكريين العالميين قالوا عنه إنه خط دفاعى كامل التحصين جعل من قناة السويس حالة فريدة فى التاريخ العسكرى".

.. كانت الليلة هى ليلة الموت لجنود إسرائيل.. الموت الزؤام، وكأن لسان حالهم يردد مقطوعة " جبران خليل جبران " الشعرية :

فـــى ظـــلام الليـــل يـــنـــادى بعضُنـــا بعضًـــا
فـــى ظـــلام الليـــل نصـــــرخ ونســـتغـيـث
وخيـــالُ الـــموت منتصـــب فـــى وســـطنا
وأجنحتُـــه الســـــوداء تُخَيِّـــم علينـــا
ويـــدُه الهائلـــة تجـــرف إلـى الهاوية أرواحنا
أَمَّا عيناه الملتهبتان فمُحَدِّقتان إلى الشفق البعيد
فـــى ظـــلام الليـــل يســـــير الـــموت
ونحـــن نســـير خلفـــه خائفيـــن منتحبين
وليـــس بيننـــا مـــن يســـتطيع الـوقوف
ولـــيس فينـــا مـــن لـــه أمـــل بالوقـــوف
فـــى ظـــلام الليل يسير الموت ونحن نتبعه
وكلَّمـــا التَفَـــتَ إلـــى الـوراء يســقط منـا ألـف

إلـــى جـــانِبَـــى الـطـــريـــق
ومـن يســـقط يـــرقـد ولا يســـتيقـظ.
ومن لا يسقط يسر قسر إرادته عالِمًا بأنه سيسـقط
ويـــرقَد مـــع الـــذيـــن رقـــدوا
أما المـوت فيظل سـائرًا محدِّقًا إلى الشفق البعيد

.. فت فى عضد جنود إسرائيل الخذلان. ونال منهم الحدثان. فلم تعد لهم قومة، واستكانوا فقد لفظتهم رمال سيناء أو هى ألقتهم على أديمها مجندلين أو منكسى رؤوسهم كالجبناء بعد أن ارتوت أرض سيناء بدماء أبناء مصر مثل البطل الفذ اللواء "إبراهيم الرفاعى"، ورفاقه الشهداء العظام.

.. كان الماضى بالنسبة لمصر هو البداية لنصر أكتوبر .

.. فقد كانت مصر آنذاك كشخصية "هاملت" الذى صوره "شكسبير" فى رائعته المسماه باسم هذه الشخصية والذى أضحى شابا بائسا ممزقا يائسا ضل منه الطريق.

.. يقول "ولز Wales" الكاتب الإنجليزى:

.. " ليس الماضى سوى بداية البداية ، وكل ماهو كائن الآن، وما كان موجودا من قبل ليس سوى بشائر الفجر الجديد"

.. ولقد ظهرت البشائر وبزغ ضوء النهار على أرض سيناء على يد جنود مصر الأبرار بحرب أكتوبر الرائعة التى سجلت فى التاريخ الحربى أنها من أروع وأخطر معارك التاريخ قاطبة إذ إنها قامت على العلم الحديث والتكنولوجيا المتطورة والأسلحة التى لم يعرف لها

العالم مثيلا من قبل، ويكفى الدلالة على ذلك أن الأقمار الصناعية الأمريكية قد التقطت ثغرة الدفرسوار و هيأت لإسرائيل التسلل منها إلى الأراضى المصرية ولم يكن للقائد البطل سعد الشاذلى يدا له فيها .

.. وإذا كان الشاعر أى شاعر قد دأب على البوح بأشعاره بخصوص ما يمر بوطنه من أفراح أو أتراح أو محن أو إحن فقد عبر الشاعر عما مر بمصر من خوضها الحروب تلو الحروب فى سبيل حريتها واستقلالها وطرد المحتل الغاصب من أرضها فقال:

ونساء فى دروب صائحات نائحات
يا أخى فى مصر لا تنسى لثالوث لعين
وجيوش سافلات ساقها حقد دفين
ساقها شوق لقتل الأبرياء الآمنين
وأتونا فى ظلام فإذ هم ساهرون
يا أخى فى مصر ـ جدَّد ذكر موقفك المجيد
ذكر شعب حطم الأغلال والقيد العتيد
ذكر جيل يضرب الأمثال للمجد التليد
ذكر من هبوا وقالوا نحن لسنا بالعبيد
ذكر أحرار تحدوا قوة الغدر العنيد

.. كما قال الشاعر بخصوص الفترة التى سبقت حرب أكتوبر :

لماذا اختفى الضحك من البلاد لماذا حل محله العويل والبكاء

.. وقال الشاعر الأستاذ " فاروق جويدة " :

لـم يبـقَ شـيءٌ لنـا من بعدِ ما غربت
شمـس الرجـال. تساوى اللصُّ والبطلُ
لم يبقَ شـيءٌ لنـا مـن بعدِ ما سقطت
كل القـلاع. تسـاوى السّـفحُ والجبـلُ
عمـرى همـوم وأحـلام لنـا سـقطت
أصابهـا اليـأس.. والإعيـاء ..والملـل
يا أيهـا العمـر رفقـا كـان لى أمـل
أن يبـرأ الجـرح.. لـكن خاننـى الأمل
ففى خيـالى شمـوخ عشـت أنشـده
صـرح تغنـت بـه أمجـادنا الأول
لكنـه العـار يـأبـى أن يفارقنـا
ويمتطـى ظهـرنـا أيان نرتحـل
عار على الأرض كيف الرجس ضاجعها
كيف استوى عندها العنين.. والرجل؟
يا أيهـا الجـرح نـار أنت فى جسدى
وجرحنـا العار كيف العـار نحتمـل؟

.. هكذا كان حال مصر إبان حرب ١٩٦٧م، وجاءت حرب الاستنزاف التى قادها باقتدار الزعيم الراحل "جمال عبد الناصر" لتعيد إلى مصر وجيش مصر ثقته بنفسه.

.. مضى السادات بعد انتهاء الحرب، وفصل القوات المتحاربة كما هو معروف ومعلوم، فى طريقه نحو السلام بعد أن أجبر العالم على احترام مصر وتقدير جيشها.

.. كان يستشعر السادات الألم الدافين جراء الهجوم الضارى عليه، وأحس بعدها بدنو أجله، وكان يكرر دائما على مسامع زوجته السيدة جيهان السادات أنه فى طريقه إلى الأخرة، ولما كانت تعتب عليه ترداده لهذه العبارة يقول لها بالحرف الواحد :

.. " إن الموت حتما إذا أتى.. فسوف يأتى!"

.. فى كتاب الدكتور "ناى" "السلوك الإنسانى" ذكر فيه :

.. "أن (فرويد) له مقولة "غريزة الموت" فى كتابه "ماوراء مبدأ اللذة" أكد فيه وبشدة زائدة علة أن الإنسان يولد ومعه غريزة الموت وأن هذه الطاقة المكبوتة ستتمكن من الإنسان مما يؤدى إلى نهايتها فإنه يستنفذ الفرد الليبيدو "طاقة غرائز الحياة " حينئذٍ تستطيع الطاقة التدميرية أن تأخذ طريقها وتقضى على الإنسان ".

.. فهل استنفذ السادات بعد أن اطمئن على خروج إسرائيل من مصر طاقة غريزة الحياة؟.

.. فكان دائم الحديث عن الموت.. ورفض تماما ارتداء القميص الواقى من الرصاص مع إصرار زوجته السيدة " جيهان السادات" على إرتدائه وقال لها القولة التى سبق ذكرها.

.. "إن الموت عندما يأتى فسوف يأتى"

.. وكأنه يردد قول الشاعر:

مـازلـت مـرتقبـا إلى العلياء حتـى بلغـت ذرى الجـوزاء
فهناك لا ألوى على من لامنـى خوف الممات وفرقة الأحيـاء

.. جاء فى كتاب "أسرار السادات" للكاتب "توحيد مجدى" تحت عنوان "تقرير فنانة مصرية عملت جاسوسة للموساد كان السبب فى هزيمة ١٩٦٧م":

.. "الهزائم مصائب تولد مفجعة ثم تتلاشى أمام عظمة الجيوش والشعوب والأمم، هكذا تثبت وثائق مستندات أسرار الرئيس الراحل "محمد أنور السادات" المحفوظة لدى البيت الأبيض فى ملف نكسة يونيو ١٩٦٧م.

.. لنبدأ القصة من البداية ففى بداية صيف عام ١٩٧٢م كان السادات قد أصبح صديقا مقربا للرئيس الأمريكى "ريتشارد نيكسون" الذى شغل المنصب بداية من ٢٠ يناير ١٩٦٩م حتى استقالته بسبب فضيحة "واترجيت" فى ٩ أغسطس ١٩٧٤م.

.. فى الواقع كان الرئيس الأمريكى "ريتشارد نيكسون" يدرك ويحترم حساسية موقف السادات السياسى والاستراتيجى والمعاهدات العسكرية الموقعة بين بلده وبين الاتحاد السوفيتى الذى اضطره أن يوقع معه اتفاقية ملزمة للصداقة والتآخى فى ٢٧ مايو ١٩٧١م.

.. راهن "ريتشارد نيكسون" على حقيقة شخصية السادات وأكد لهم أنه سينجح فى كسب وده وثقته وأن السادات سيوافق فى النهاية على الانضمام للمعسكر الأمريكى الغربى.

.. فى أوراقه سجل نيكسون أنه فى سبيل تحقيق هذا الهدف طلب من الإدارة الأمريكية أن تتعامل مع السادات على أنه حالة " رجل عظيم "، إذا شعر باحترام المحيطين به وصدقهم فإنه سيقدم ما لم يتوقعه أحد من قبل وربما صدق فيما سجله.

.. اعتمدت سياسة نيكسون مع الرئيس السادات على مبدأ المكاشفة وكان الرئيس الأمريكى يعلم أن عيون السوفييت فى كل أركان النظام المصرى تراقب السادات بل تحسب عليه أنفاسه.

.. لذلك فكر نيكسون أن يرسل للسادات "هنرى كيسنجر" رجل ثقته ومستشاره للأمن القومى بداية من ٢٠ يناير ١٩٦٩م وحتى ٣ نوفمبر ١٩٧٥م مع العلم أن كيسنجر شغل فى فترة لاحقة منصب وزير الخارجية بداية من ٢٢ سبتمبر ١٩٧٣م وحتى ٢٠ يناير ١٩٧٧م.

.. تكشف المستندات السرية الأمريكية كما أثبت صاحب كتاب: أسرار السادات أن الرئيس الأمريكى " ريتشارد نيكسون " عندما تولى الرئاسة الأمريكية بداية من ٢٠ يناير ١٩٦٩م اعتمد على فريق خبراء نفسى من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية كلفهم بدراسة شخصيات الزعماء والرؤساء بالعالم من أجل وضع كتيبات تعامل نفسية مع كل منهم.

.. أما الرئيس السادات فقد كانت عملية تحليل شخصيته مهمة شاقة استغرقت من فريق الخبراء الأمريكى عملا دؤوبا لمدة عامين نجحوا بعدها فى وضع كتيب نفسى معقول أمكن لنيكسون عن طريقه معرفة مفاتيح شخصية السادات وطريقة اكتساب وده وثقته واحترامه.

.. الملفت أن دراسة شخصية الرئيس السادات أكدت أنه " إنسان رقيق المشاعر طيب القلب حازم ومناور لا يمكن التنبؤ بما سيفعله بعد دقائق " وهو ما دفع نيكسون أن يركز خطته فى التعامل معه على أساس الصدق وأمانة المعلومات التى كان السادات يحتاجها بشدة كى يتمكن من تحصيل ما خفى عنه سياسيا فى خريطة بلاده والمنطقة برمتها.

.. هنا تحكى وثائق أسرار السادات أن الرئيس الأمريكى علم من فريق الخبراء النفسيين أن السادات شخصية تعشق التعلم وأنه كان يبحث طيلة حياته على العلم والمعرفة.

.. فقرر نيكسون أن يدخل إليه من هذا الباب فكان يرسل مستشاره للأمن القومى "هنرى كيسنجر" بملفات المعلومات التى كان يحتاجها السادات من آن لأخر ودون أن يحجب عنه إلا ما يضر بمصالح الولايات المتحدة الأمريكية.

.. طبقا للمستندات الأمريكية كانت معظم الملفات عن حقائق وقعت فى الماضى كان السادات يسعى لفك طلاسمها ولذلك لم يخف نيكسون أن يكشفها له مقابل صداقته وثقته بالإدارة الأمريكية أما على الجانب الشخصى والإنسانى فكان نيكسون يعتبر السادات شخصية تاريخية لن تتكرر.

.. فى بداية إبريل ١٩٧٢م أرسل الرئيس نيكسون للقاهرة "هنرى كيسنجر " مستشاره للأمن القومى ليقابل الرئيس السادات كى يناقش معه عددا من النقاط الهامة فى العملية السياسية المتعثرة بالمنطقة وفى نفس الوقت حمله ملفا خاصا "سرى للغاية" عن أسرار حرب يونيو

١٩٦٧م كان نيكسون قد نوه للسادات عنه فى محادثة هاتفية بينهما وظل السادات يطلبه بالاسم.

.. وطبقا لوثائق أسرار السادات هدف نيكسون يومها تسهيل مهمة كيسنجر بالقاهرة وكان الملف السرى بمثابة هدية معلوماتية للسادات ستكشف له مفاجآت خطيرة فى ماضى بلاده أهمها أن سبب نكسة يونيو ١٩٦٧م كان فى وحدة رادار روسية الصناعة من طرازه بى -١٠.

.. هذا الرادار الغبى كان عبارة عن وحدة كشف ومسح الكترونية جوية محملة على شاحنة عسكرية صغيرة الحجم كان المفترض أنها من أعظم ما انتجته الصناعات العسكرية الروسية وقتها سلمتها وزارة الدفاع الروسية إلى الجيش المصرى بداية من عام ١٩٦٦م.

.. وكانت تلك الوحدة طبقا لكتيبات تشغيلها تكشف أى جسم جوى مهاجم فى محيط يتعدى الخمسين كيلو مترا مربعا وتعاقدت مصر يومها على ١٠ وحدات كانت تكفى تغطية جبهة المواجهات العسكرية المعروفة آنذاك بين مصر وإسرائيل على طول ١٧٥ كيلو مترا.

.. فى الحقيقة أثار ذلك الملف عند السادات ذكريات حضرها بنفسه على الهاتف من القاهرة حيث كلفه الرئيس عبد الناصر بمتابعة الوفد المصرى الرفيع الذى زار موسكو عام ١٩٦٦م لاستلام الوحدات دون أن يعرف السادات خفايا الزيارة أو سببها الحقيقى.

.. ففى صيف عام ١٩٦٦م أقامت وزارة الدفاع الروسية فى موسكو حفلا مصريا، معيبا حضره الزعيم الروسى "ليونيد بريجينيف" الذى

شغل منصب رئيس الاتحاد السوفييتى من ١٤ أكتوبر ١٩٦٤م وحتى ١٠ نوفمبر ١٩٨٢م.

.. كما حضره معه "أندريه جريشكو" وزير الدفاع الروسى من ١٢ إبريل ١٩٦٧م وحتى ٢٦ إبريل ١٩٧٦م وكان بين الحاضرين وزير الخارجية الروسى "أندريه جروميكو" الذى شغل المنصب من ١٤ فبراير ١٩٥٧م وحتى ٢ يوليو ١٩٨٥م وبالقطع لم يغب عن الحفل " يورى أندروبوف " رئيس المخابرات الروسية من ١٨ مايو ١٩٦٧م وحتى ٢٦ مايو ١٩٨٢م.

.. ولأن الحفل أقيم لتوقيع التعاقد النهائى وتسلم الوحدات فقد دعت وزارة الدفاع الروسية من الجانب المصرى يومها المشير "عبد الحكيم عامر" وزير الحربية والقائد العام للجيش المصرى من ١٩٥٦م وحتى ١٩٦٧م والمعروف أنه انتحر عقب الهزيمة فى ١٤ سبتمبر ١٩٦٧م، وقد كان بصحبته "صلاح نصر" رئيس جهاز المخابرات من ١٩٥٧م وحتى عام ١٩٦٧م.

.. وفى الحفل الذى كان سرا قوميا روسيا تسلمت مصر أول وحدة من الرادار الروسى "بى – ١٠" الذى وافق الرئيس الروسى ليونيد بريجنيف على توريدها إلى الرئيس "جمال عبد الناصر" عقب مفاوضات مضنية وشاقة.

.. فى الحفل كما هو مسجل أبهر الخبراء العسكريون الروس الحاضرين من الجانب المصرى عند تجربة وحدة الرادار الجديد لدرجة

دفعت عبد الحكيم عامر أن يؤكد للرئيس جمال عبد الناصر عبر الهاتف من موسكو أن العصفورة لن يمكنها أن تخترق حدود الرادار الروسى "بى – ١٠".

.. فى الواقع تثبت الوثائق التى حصل عليها الرئيس السادات يدا بيد من كيسنجر فى إبريل ١٩٧٢م بالقاهرة أن تلك الوحدة كانت السبب الفعلى وراء قرارات الرئيس جمال عبد الناصر الـ ٦ التى أدت لهزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧م ومنها إخلاء سيناء من المراقبين الدوليين وغلق قناة السويس ومضايق تيران وتحريك القوات والقطع الحربية لقد وثق عبد الناصر بقدرة تلك الوحدة الأسطورية من الرادار الروسى وقدرتها على كشف الطائرات الإسرائيلية حتى قبل إقلاعها من مطاراتها .

.. وبالتأكيد لم يتوقع الرئيس عبد الناصر يومها أن جملة واحدة مشفرة جملة السيدة سيئة السمعة التابعة لصلاح نصر فى القاهرة كان محتواها : " الرادار الروسى أعمى تحت ٥٠٠ متر" ستكون سبب نكسة ٦٧ وتفاخر إسرائيلى زائف بقوة وهمية غير حقيقة.

.. التفاصيل كما وقعت تكشف أن الزمان كان أحد ليالى عشر مايو صيف ١٩٦٧م أما المكان فهو شاليه يملكه صلاح نصر فى منطقة " صحارى سيتى " بالقرب من هضبة الأهرامات فى الجيزة.

.. وما توفر من معلومات يؤكد أن الفنانة المصرية التى اصطحبها صلاح نصر ليلتها فى ذلك الشاليه كانت ضمن عدد آخر من السيدات استغلهن صلاح نصر فى عملية جنسية شاذة فى إطار عمليات الكنترول والسيطرة المخابراتية على عناصر أجنبية ومحلية.

.. التفاصيل تكشف أن تلك الفنانة كانت قيادية فى شبكة أنشأها صلاح نصر حيث أوكل لها تجنيد وتدريب السيدات الأخريات على فنون الجنس والشذوذ بين النساء وأنها كانت أشبه بالقوادات ،وقد كانا فى تلك الليلة على موعد روتينى بينهما لتبادل الغرام والمعلومات التى تجمعها هى من النساء اللائى تعرفهن فى المجتمع المصرى.

.. فى الواقع مثبت بوضوح أن صلاح نصر كان يجهل تماما ميل تلك الفنانة المصرية لحساب الموساد وتشير الوثائق إلى أنه كان لا يكشف عادة عند بداية تجنيده واختياره للسيدات فى مجموعته إلا عن ألوان ملابسهن الداخلية ولذلك لم يتمكن من كشف عمالتها لإسرائيل.

.. خلال أحداث تلك الليلة الساخنة وفى لحظة ما، رن جرس الهاتف فطلبت منه الفنانة الجاسوسة أن لا يرد لكنه أكد لها أنه لن يأخذ سوى دقيقة لأنه ينتظر تليفونا هاما وكان حظها أن تتعثر فى أغلى معلومة أرسلت لإسرائيل من مصر منذ بداية انقلاب الضباط الأحرار فى ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢م وحتى تلك الليلة الغريبة .

.. على الهاتف كان القائد العام للجيش " عبد الحكيم عامر " وقد كان صوته مرتفعا فى حديثه مع صلاح نصر ولذلك كانت الجاسوسة تسترق السمع جيدا وهى مستندة بخنوع على صدره قريبة من السماعة بينما عامر على الطرف الآخر لا يدرك ما يحدث على فراش صلاح نصر يسب ويلعن وزارة الدفاع الروسى بدعوى أنها ضحكت على مصر وسلمتها رادارا غبيا لا يرى تحت ٥٠٠ متر.

.. طبقا لمعلومات الوثائق الأمريكية كانت الجمل واضحة للغاية والمفاجأة مدوية.. المفاجئة كشفها أحد الطيارين المصريين المدربين فى الاتحاد السوفيتى ويدعى "محمد حسنى مبارك" ـ وكان قد وقع فيها عن طريق الصدفة وهو يجرب رد فعل واستجابة الرادار الجديد وفى نهاية الحوار طلب عبد الحكيم عامر من صلاح نصر الذى كان متوترا أن يوافيه فورا فى مكتبه.

.. بينما صلاح نصر يعتذر عن إفساد الليلة ويرتدى ملابسه ليلحق بعبد الحكيم عامر كانت الجاسوسة ممددة على الفراش لا تريد أن تستر جسدها الذى كان سببا فى التقاط أذنيها أغلى معلومة فى تاريخ الحروب بين مصر وإسرائيل وبعدها بساعة واحدة كانت الكلمات الست قد وجدت طريقها إلى تل أبيب حتى قبل أن ينهى عبد الحكيم عامر اجتماعه مع صلاح نصر.

.. وفى الواقع ما تم بينهما فى اللقاء كان من اليسير على المخابرات المركزية الأمريكية أن تتوقعه فقد قرر الاثنان يومها إخفاء الموضوع عن الرئيس "جمال عبد الناصر" وتلقين الطيار المصرى المذكور حتى لا يفتح فمه خشية أن يدفع أحدهما منصبه ثمنا للمشكلة بعد أن كانا مسئولين معا عن التعاقد على هذا الرادار بعقد ملزم طويل المدة.

.. بالقطع يمكننا أن ندرك بوضوح سر شجاعة إسرائيل فى مهاجمة المطارات المصرية والعربية فى صباح ٥ يونيو ١٩٦٧م فببساطة لم يتطلب الهجوم الجوى الإسرائيلى إلا رسم مسار جوى منخفض فوق مستوى سطح البحر وخلال الجغرافيا المستوية فى سيناء.

.. وقد طارت يومها الطائرات الإسرائيلية المهاجمة فى خطوط مستوية متعرجة على ارتفاعات لم تتخط حاجز الـ ٤٥٠ مترا فوق سطح البحر أو الأرض وقبل أهدافها كانت تظهر فجأة فى شكل مباغتة هجومية ضد الدفاعات الأرضية المصرية والباقى سجلته أوراق تاريخ عدوان هذا اليوم.

.. وللحقيقة كما سجل "هنرى كيسنجر" فى أوراقه الشخصية كان السادات متألما للغاية لأنه تذكر أن إسرائيل نفذت بعدها فى ليلة ٣١ أكتوبر ١٩٦٨م عملية مشابهة هاجمت فيها جسر مدينة قنا ونجع حمادى بصعيد مصر.

.. كما تذكر عملية أخرى نفذتها بعدها فى ليلة ٢٦ ديسمبر ١٩٦٩م عرفت فى سجل العمليات الإسرائيلية بعملية (الديك الرومى – ٥٣) هاجمت فيها القوات الإسرائيلية الخاصة شواطئ مدينة رأس غارب المصرية الغريبة من البحر الأحمر ونجحت يومها فى رفع وحدة رادار روسى من نفس أسرة الرادار الأول لكن طراز " بى –١٢ " وذلك بواسطة الطائرات الأمريكية الصنع من طراز " سيكور سى –٥٣ " العمودية العملاقة التى كانت تجرب لأول مرة يومها وكان حزن السادات أن أحدا من القادة فى القاهرة لم يهتم لتأمين ذلك الرادار ولم يفهم خطورة ما حدث منذ البداية.

.. وتكشف الوثائق أن السادات بعد أن أتم قراءة الملف الأمريكى السرى شكر "هنرى كيسنجر" وطلب منه أن يشكر الرئيس "ريتشارد نيكسون" عند يعود وعندما سأله كينسجر عن السبب ابتسم وصمت.

.. طبقا للأحداث المسجلة فقد كان القرار الذى اتخذه السادات بذكاء وقام فى ١٨ يوليو ١٩٧٢م بطرد الخبراء الروس من مصر قرارا عبقريا، متسقا مع خطة الخداع الاستراتيجى الكبرى التى صرفت نظر العالم عن أنه يفكر فى الحرب ثانية، وقد نجح السادات فى الضغط على الروس حتى قدموا له فى مارس ١٩٧٣م صفقة أسلحة كبرى اعتمد عليها فى بدء حرب أكتوبر ١٩٧٣م.

.. مصطلح الاستراتيجية يعد من المصطلحات القديمة المأخوذة من الكلمة الإغريقية Strato وتعنى الجيش أو الحشود العسكرية،ومن تلك الكلمة اشتقت اليونانية القديمة مصطلح Strategos وتعنى فن إدارة وقيادة الحروب.

.. وهى كذلك تعنى أصول القيادة الذى لا اعوجاج فيها، فهى تخطيط عال المستوى،فمن ذلك الاستراتيجية العسكرية أو السياسية التى تضمن للإنسان تحقيق الأهداف من خلال استخدامه وسائل معينة،تعنى الطريق أو الإستراتيجية، فهى علم وفن التخطيط والتكتيك والعمليات،ثم استعملت هذه الكلمة فى المجالات المتعددة فى شتى مناحى الحياة العامة.

.. أما أهم ما تعلمه السادات يومها من الملف الأمريكى السرى الذى ذكرناه سلفا هو تغيير وتطوير مصادر أنواع الرادارات المصرية ونشرها بعد تأمين مواقعها جيدا، وقد كان لقراره أعظم أسباب نجاح قوات الدفاع الجوى المصرية فى مواجهة القوات الجوية الإسرائيلية المعادية وردعها وإخراجها من معادلة الهجوم الإسرائيلى المضاد للعبور فى أول وأخطر وأهم ساعات التاريخ المصرى الحديث .

.. وهاك ما يدل على عبقرية هذا الرئيس المصرى الوطنى وعلى دهائه غير المسبوق.

.. كشفت الأوراق أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تعمدت فى بداية يوليو ١٩٧٢م تسريب تقارير للسادات تثبت تورط بعض الخبراء الروس فى مصر فى العمل لحساب الموساد الإسرائيلى مما شجعه فى النهاية على طردهم فى نفس الشهر.

.. مع ذلك تثبت مستندات أسرار السادات أن وجهة نظر المخابرات الأمريكية فى الخلايا الروسية كانت خاطئة لأن السادات استغل تلك التقارير ضد أمريكا والموساد وأصدر قراره المفاجئ بطرد الخبراء الروس مما حرم أعداءه من المعلومات التى كانت تحت تصرف الخبراء الروس طيلة الوقت.

.. فى المستندات الأمريكية السرية للغاية خطة استراتيجية لم تنشر من قبل عمد فيها السادات إلى تسريب معلومة تفيد أن لديه مرضا عضالا وأنه يحتاج للعلاج العاجل فى أوربا وتكشف الوثائق أن تلك الخطة بثها جهاز معلومات السادات عن عمد خلال تواجد الرئيس المصرى فى الجزائر خلال الفترة من ٥ إلى ٩ سبتمبر ١٩٧٣م لحضور فعاليات الدورة الرابعة لمؤتمر دول عدم الإنحياز.

ومن المعروف أن حركة عدم الإنحياز كانت من فكر الرئيس جمال عبد الناصر التى برزت خلال مؤتمر "باندونج" فى إندونسيا عام ١٩٥٥م وهى مجموعة دول قررت الابتعاد عن التورط فى الحرب

الباردة بين أمريكا وروسيا بعد الحرب العالمية الثانية وكان أول مؤتمر فى بلجراد فى الفترة من ١ إلى ٥ سبتمبر ١٩٦١م.

.. نعود لموضوعنا وطبقا للقصة استضاف يومها الرئيس الجزائرى "هوارى بومدين" الذى تولى رئاسة الجزائر فى الفترة من ١٩ يونيو ١٩٦٥م وحتى ٢٧ ديسمبر ١٩٧٨م القمة وفى الجزائر أثناء انعقاد القمة كانت المخابرات المصرية لديها معلومات مسبقة عن دبلوماسى جزائرى يعمل جاسوسا لحساب الموساد الإسرائيلى والمخابرات الأمريكية فى العاصمة الفرنسية باريس لم تكشف الوثائق عن بياناته أو اسمه وقد كان يتنقل بحكم وظيفته الدبلوماسية بحرية كاملة بين الجزائر وباريس.

وفى الوثائق اعتمدت الخطة المصرية على تسريب خبر مرض السادات الكاذب عن طريق أحد الدبلوماسيين المصريين التابعين سرا للجهاز المصرى وكان معروفا أنه دبلوماسى قديم يعمل فى السفارة المصرية بالجزائر.

.. وكان دوره ينحصر فى التقرب ومصادقة الجاسوس الجزائرى خلال المؤتمر وقد نجح فى ذلك حتى إنهما أصبحا يتشاركان أشياء عدة بينها النساء الجميلات فى أروقة الفندق الذى نزل به الوفد المصرى.

.. فى اليوم الرابع للمؤتمر قام الدبلوماسى المصرى بالخطوة الأهم والرئيسية فى الخطة حيث طلب بعفوية وبشكل طبيعى من الجاسوس أن يساعده بحكم خبرته فى فرنسا التى قضى بها أعواما طويلة للبحث عن منزل أو فيلا فخمة بأسعار جيدة بشرط أن تتوافر بالمنزل مواصفات الهدوء والبعد عن باريس.

.. وعندما سأله الجاسوس عن السبب قال له الدبلوماسى المصرى إنه سيطلعه على سر هام ورجاه أن لا يكشفه لأحد ثم حكى له أن المنزل سيسكنه الرئيس السادات بعد أسبوعين أى فى بداية أكتوبر ١٩٧٣م لأنه مريض للغاية ويحتاج لزيارة طبيب فرنسى شهير.

.. طبقا للخطة حكى الدبلوماسى المصرى للجاسوس أن الرئاسة المصرية اتفقت سرا مع هذا الطبيب الفرنسى الذى لم يكشفوا له اسمه كى يعالج الرئيس السادات سرا فى عيادته بباريس.

وترتيبا على الخطوات وافق الجاسوس ورحب بمساعدة صديقه الدبلوماسى المصرى الذى صور له أنه هكذا سيساعد مصر كلها وبالفعل تمت عملية شراء الفيلا خارج باريس وحصل الدبلوماسى الجزائرى على عمولة كبيرة إمعانا فى التمويه.

وكان المثير أن المستندات الأمريكية تكشف أنه طبقا للخطة اختفى السادات عقب عودته من الجزائر تماما عن الإعلام وبدا وكأنه سافر فعلا بل تشير الوثائق دون تفاصيل لقصة دموية مصرية محكمة تمت حول الفيلا الجديدة فى باريس جعلت من راقبها وقتها من عملاء الموساد والمخابرات الأمريكية يعتقد بأن الرئيس السادات وصل سرا إليها.

والجدير بالذكر أن تلك المعلومة طارت يومها بالتأكيد إلى من سيثمنها فى واشنطن وتل أبيب وكان لها تأثير مباشر على تقديرات وكالة المخابرات المركزية الأمريكية والموساد الإسرائيلى بأن السادات لا يمكنه أن يشن حربا فى أول أسبوع من أكتوبر لأنه سيسافر فى نفس التوقيت لباريس للعلاج.

.. هكذا كان دهاء السادات الذى يدرجه تحت القلة القليلة من دهاة العرب.. بل من دهاة العالم.

.. فى معارك الدبابات الرهيبة التى لم تشهد مثلها معارك أخرى حتى فى الحرب العالمية الثانية لم تهدأ النيران لكى تتجدد أكثر التهابا، لم تصمت المدافع أبدا، كل الأسلحة اشتركت فى هذه المعركة الدموية الوحشية، الدبابات وجها لوجه تروى أروع قصص البطولة والاستشهاد المدرعات تحولت إلى جثث هامدة.. الصواريخ تملأ الصحراء.. إنها قصة الرعب والموت.

.. لقد كان لهذا الحشد الحاشد للقوات المصرية أثره البالغ فى نجاحها وهزيمة إسرائيل.

.. قدر لكاتب هذه السطور أن يلتقى بالجنرال "بوفر" على ضفاف الضفة الغربية لقناة السويس ذات يوم عقب حرب ١٩٦٧م وكان قد ترك المجال أمام المجموعة الماثلة أمامه لكى يجيب على أى سؤال يوجه إليه.

.. سألت الجنرال "بوفر":

.. أليس الحشد ,, حشد الجيش هو الوسيلة المثلى فى أية معركة ؟

.. أجاب بوفر على سؤالى : نعم هو الوسيلة المثالية، ولو لم يتم الحشد فى أية معركة لضاعت الجيوش.

.. أما خطة الدفاع التى خطط لها السادات مع قادة جيش مصر.

.. فلو لم تنجح خطة الدفاع والخداع التى قادها السادات بعمق وذكاء واقتدار لكان لمعركة أكتوبر شأن آخر.

.. ومن هنا جاء نجاح الجيش المصرى بالحشد الحاشد الذى تم بخطة كاملة لمواجهة جيش إسرائيل، وكما ألمعنا.

.. فقد كان المتوقع، إذا انكشف السر، أن يقوم العدو بما يسمى ضربة إجهاض.. أن يسبق فى الهجوم وأن يقضى على كل الخطة التى كانت أضخم بكثير من أكبر معارك الدبابات العالمية الثانية ولم يكن موشى ديان ليتوقع أن تصل هذه المعارك، إلى هذه الدرجة من الضراوة والدموية عندما وعد بسحق عظام المصريين. فقد عاد فى رابع أيام القتال ليقول إن معارك بهذه الدموية وبهذه الخسائر الفادحة لا يمكن أن تستمر طويلا. وهذا حق فقد اشترك فيها من الجانبين أكثر من ألف وخمسمائة مدرعة.. وكان القتال يجرى فى كثير من الأحيان مواجهة بين عشرات المدرعات التى لايفصل بينها أكثر من مائة متر !.. ويسجل التاريخ بالفخار للجندى المصرى، أنه لم توجد دبابة مصرية محترقة على أرض المعارك ،إلا وكانت فوهة مدفعها (الماسورة) فى مواجهة العدو.. وقد رأى شهود العيان، دبابات إسرائيل المحترقة، وعدد كبير منها متجه إلى الشرق تسللا ومروقا من رهبة المعركة..

.. وكانت هذه السطور من هؤلاء الشهود.

.. حانت ساعة الصفر. العميد عبد رب النبى فى موقع الملاحظة على الضفة الغربية الذى يبعد ٩٠٠ متر فقط من الشاطئ، وفى مكان مرتفع يرى منه كل شىء. الساعة الثانية ودقيقتان.. انطلقت الطائرات المصرية على ارتفاع منخفض جدا، وكأنها زاحفة فوق الرؤوس..

(على ارتفاع ١٥ مترا اتجهت إلى جميع مواقع مطارات العدو ومراكزه المؤثرة)..

.. شعور شامل بالارتياح والأمل.

.. بدأ التاريخ يكتب أول سطور الملحمة..

.. القوات الأمامية للعدو أذهلتها المفاجأة، لم تفتح نيرانها! سمعنا أصوات اشتباك الطيران فى العمق.. أول بشرى لنجاح أول ضربات الخطة.

.. الساعة الثانية والخمس دقائق. المدفعية المصرية تصب نيران جهنم على امتداد الجبهة. بطاريات مدافع العدو بدأت التدخل. أسكتناها.

.. الساعة الثانية وعشرون دقيقة عادت الطائرات المصرية..

.. أطقم اقتناص الدبابات تنزل إلى الماء. بدأ العبور. صرخة الإيمان المدوية ((الله أكبر)) تهز الأجواء.

.. الموجات تتدفق، العدو يتدخل بالمدفعية. أسكتناها. الطيران الإسرائيلى لم يظهر بعد. معابر الاقتحام يتم تركيبها. معابر الناقلات البرمائية تظهر على الشاطئ، وتمتد سريعا إلى وسط الماء. المعديات يحملها مئات الرجال. قطع الكبارى تظهر من مكامنها.. المهندسون الأبطال يتحركون بأسرع من الطلقات.

.. قال اللواء " عبد رب النبى حافظ " قائد الفرقة ١٦ التى كانت مكلفة بأشق مهام القتال فى خطة ٦ أكتوبر فقد كانت مسئولة عن التقدم

فى القطاع الأوسط للجبهة، المتجهة إلى العوجة والقسيمة.. وكان القائد الإسرائيلى الذى يواجهه هو "أريل شارون" الذى تسلم القيادة بعد أن استدعوه من مزارعه فى بير سبع، وقطع ٢٢٠ كيلو مترا حتى وصل إلى مقر قيادته فى الطاسة..

.. كانت القوات المصرية تربض فى وضع الهجوم..فخط المواجهة يمتد حوالى ٤٠ كيلو مترا من وسط بحيرة التمساح شمالا إلى منتصف بحيرة المرة جنوبا.

.. والتخطيط كما يعبر العلماء هو "التقدم".

.. ولقد نجحت خطة الخداع المصرية، ورفضت "جولد مائير" سياسة المبادرة بالهجوم حتى تكسب "التأييد الدولى".

.. وعلى هذا نعلق ونقول:

.. " إن بيجن لم يعبأ ذات يوم "بالتأييد الدولى".. وقد سخر من هيئة الأمم المتحدة بقولته "ليس المهم أن تأخذ الأمم المتحدة قرارا أو قرارات.. إنما المهم هو نحن هل نوافق عليه أو لا نوافق ".

.. و"بيجن" هذا له حكايات فى الإرهاب أشبه "بحكايات كانتربرى" التى ألفها "جيفرى تشوسر" وبدأها (١٣٨٧) ووافته المنية دون أن يتمها،وهى مجموعة من القصص يسردها الشاعر على لسان عدد من الحجاج إلى ضريح القديس توماس فى كانتربرى.

.. وتظهر شخصية كل من هؤلاء الحجاج واضحة جلية من خلال القصة التى يرويها. وتصور لنا هذه (الحكايات) الحياة والمجتمع الإنجليزى فى القرون الوسطى أبدع تصوير.

.. ولو أدرك "تشوسر" "بيجن" لوضع حكاية فى كتابه هذا. فقد قام بجمع اليهود من الشتات، وتوجه بهم إلى فلسطين. حيث كان يظن أنها أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، ولكنه وجد مقاومة شرسة من أصحاب الأرض ووجد أن المسلمين لا يتركون أرضهم إلا على دمائهم فعرف أن الطريق ليس مفروشا بالورود واتخذ منهج العنف لتفريغ سكان الأرض الأصليين منها ليحل هو وأمثاله القادمين من شذاذ الآفاق محلهم.

.. وهو الذى قام بنسف فندق الملك داود فى مساء ١٩٤٦/٧/٢٢م.

.. وهو الذى ارتكب مذبحة " قرية دير يس " فى ١٩٤٨/٤/٩م. حيث كان أطفال القرية وشيوخها ونساؤها نياما. وحيث قتل شبابها وبقر بطون نسائها الحوامل، ووضع جثث مذبحته فى سيارة قمامة وألقى بها عند بوابة تفصل القدس الشرقية عن القدس الغربية.

.. ويقول هو نفسه فى مذكراته:

.. " لولا النصر فى دير ياسين لكان الوضع العسكرى لليهود أسوأ فقد كانت دير ياسين بمثابة لواء إسرائيلى كامل أضيف لقواتنا فى وقت حرج لأن سكان القرى العربية هجروها دون إطلاق رصاصة واحدة خوفا من أن يحدث لهم مثلما حدث فى دير ياسين".

.. وقد أسمى "بيجين" هذه المذبحة "مذبحة النصر" ؟!

.. وقد استقبل فى أمريكا وأقيم له حفل تكريم تبرأ الكثيرون منه وعلى رأسهم العالم الكبير "أينشتاين".

.. وهو الذى وافق على ضرب المفاعل الذرى العراقى.. وفى هذا الخصوص قال:

.. " لو أن المفاعل النووى العراقى لم يدمر لحدثت محرقة جديدة" .
.. إلى آخر القائمة الإرهابية التى تَقَدْمهَا بيجن.
.. وكان هو أيضا وراء مذبحة " صبرة وشاتيلا ".
.. وعندما رفض بعض شباب إسرائيل ما ارتكبه بيجن، وقاموا بمظاهرة احتجاج وقطعوا الطريق إلى حيفا وأشعلوا النار فى إطارات السيارات وكان هؤلاء الشباب يعربون عن غضبهم وفى القدس خرجت مظاهرة تضم مائة ألف شخص أعلنوا أنهم يشعرون بالخجل لكونهم إسرائيليين وتعرضوا لعصىّ الشرطة والقنابل المسيلة للدموع.
.. ويحكى بعض الشهود الذين نجوا من المذبحة وعلى رأسهم " أم كابد الفلسطينية" ما يلى:
.. " كدت أفقد عقلى عندما بقروا بطن "أم مبارك" الحامل فى شهرها التاسع وبعثوا أحشاءها وأخرجوا الجنين وأجهزوا عليه بالرصاص وقتلوا فلان وفلان.. أما جارتى فلم تنتبه لما يحدث لأننا تعودنا على صوت الرصاص ثم وجدتها موثقة اليدين مذبوحة وانتزعوا سروالها وأعتقد أنهم اغتصبوها أما فلان فقد قتلوه وقطعوا يده بالبلطات والآخر كان رأسه منتصبا وقد شوهت ضربات السكين معالم وجهه".
.. وهاك مشهد آخر لشيخ فلسطينى عجوز بلغ من العمر أرزله يسير بين أنقاض مخيم من مخيمات صبر وشاتيلا والأسى مرتسم على تجاعيد وجهه يقول:
.. "بحثت عن عائلتى بين الأنقاض والأطلال ولم أجد شيئا فقال لى رجل الإسعاف توجه إلى مسجد المخيم أو المدينة الرياضية للبحث عن عائلتك بين

جثث الضحايا وفى المسجد وجدت إحدى بناتى مربوطة اليدين والقدمين ومذبوحة وإلى جانبها طفلها الرضيع وهو الآخر طعنوه بالسكين وعلى بعد قدمين شاهدت زوجتى وكانت مذبوحة أيضا ويدها اليمنى كانت تمسك بذراع أحد أبنائى يبدو أنها دافعت عن ابنتها وبالقرب منها كانت ابنتى الصغرى مضرجة بدمائها تناثرت حولها أوراق ممزقة من القرآن الكريم وقد تبللت بالدم.. هؤلاء المساكين اعتقدوا أن المسجد آمن فالتجأوا إليه، تصوروا وتخيلوا مشاعر هذا الرجل العجوز وهو يرى عائلته كلها جثث مذبوحة".

.. وهذا هو "بيجين" الذى نال جائزة نوبل للسلام؟!!!.. مع اعتراض أربعة من بين خمسة من الذين منحوه الجائزة العالمية على منحه إياها، والذى كسر السادات شوكته وانتزع من بين أنيابه أرض سيناء بعد مفاوضات مضنية خاضها السادات معه فى سبيل حقن دماء المصريين والإسرائيليين على السواء.

.. وهذا هو السادات الذى وجهت أجهزة الإعلام العربية مدافعها إليه بعد استرداده لسيناء.

.. وأيضا هذا هو السادات الذى ارتبط استراتيجيا بالقضية الإسرائيلية وكان الزعيم العربى الذى رفع من شأن القضية دوليا بطول عام ١٩٧٦م وهو "عام فلسطين" على الرغم من العلاقات المتوترة التى كانت بينها وبين دول المواجهة وقطعت تماماً فى أعقاب مبادة نوفمبر ١٩٧٧م.

.. وكان يقف وحيدا فى الميدان بعد أن تخلى عنه الجميع، وقد كان من قبل يحيطونه بالتقدير والإعجاب وشراكة كل البلاد العربية فى الحرب التى قادها ضد إسرائيل.!